

# طه عبدالرحمن .. رائد الفلسفة التداولية والاثنمانية

الدكتور / محمود محمد علي

أستاذ الفلسفة / جامعة أسيوط



# طه عبدالرحمن .. رائد الفلسفة التداولية والائتمانية



# طه عبدالرحمن .. رائد الفلسفة التداولية والائتمانية

شهدت الساحة العربية والإسلامية عددًا من المشاريع الفكرية والفلسفية التي تحاول النهوض بالواقع، وحل إشكالاته، ومواجهة الأسئلة المطروحة عليه.. ومن هذه المشاريع ما أنجزه طه عبد الرحمن (م ١٩٤٤) ، ذلك المفكر العربي المغربي الرائع والذي يمثل بحق عودة إلى هؤلاء الفلاسفة الذين تركوا أبراجهم العاجية واهتموا بالحياة الواقعية المعيشة؛ فهو يمثل بحق عودة لسقراط، والإمام أبو حامد الغزالي، والفيلسوف الإنجليزي "جون ستيوارت

مل"، وأمثالهم، ممن أدوا خدمات جليلة  
لأوطانهم من خلال فكرهم، فإذا كان سقراط قد  
حدد المفاهيم بدقة لينقذ شباب أثينا من خطر  
السوفسطائيين، وعمل الغزالي على عودة  
اليقين إلى نفوس الشباب وحثهم على التمسك  
بصحيح الدين ومكارم الأخلاق، حين استطاع  
أن يعالج الانحرافات التي بدأت تنتشر في  
عصره؛ وقدم جون ستيوارت مل خدمات جليلة  
لوطنه (انجلترا) سياسياً واقتصادياً من خلال  
نظرياته حول الحرية والمنفعة العامة. جاء فكر  
طه عبد الرحمن الذي اتسم بسمه أساسية ألا  
وهي الربط الوثيق بين الفلسفة والحياة، فليست  
الفلسفة عنده نشاطاً تجريبياً يدور في فراغ،

وإنما هي فاعلة ناشطة ترمي إلى التعمق في الواقع واستكناه خباياه، واستخراج مبادئه العامة من تفصيلاته الفرعية، وتحت الإنسان على أن يتعقل واقعه وينظر إلى واقع غيره، ويعلم أن له حق الاختلاف مع غيره، كما يملك غيره هذا الحق. إنه لا يؤمن بوجود برج عاجي يطل منه الفيلسوف على العالم، إنما يعيش الحياة بكل تفاصيلها ويكل نجاحاتها وإحباطاتها.

والدكتور طه عبد الرحمن مفكر مغربي متخصص في المنطق واللسانيات، يؤمن بتعدد الحداثات ويسعى لتأسيس حداثة أخلاقية

إنسانية انطلاقاً من قيم ومبادئ الدين الإسلامي.

ولد طه عبد الرحمن ( مع حفظ الألقاب ) في مدينة الجديدة بالمغرب عام ١٩٤٤ ، وبها درس دراسته الابتدائية، ثم تابع دراسته الإعدادية بمدينة الدار البيضاء، ثم بجامعة محمد الخامس بالرباط حيث نال إجازة في الفلسفة، واستكمل دراسته بفرنسا بجامعة السوربون، حيث حصل منها على إجازة ثانية في الفلسفة ودكتوراه السلك الثالث عام ١٩٧٢ برسالة في موضوع "اللغة والفلسفة : رسالة في البنيات اللغوية لمبحث الوجود"، ثم دكتوراه

الدولة عام ١٩٨٥ عن أطروحته "رسالة في الاستدلال الحجاجي والطبيعي ونماذجه". درّس المنطق في جامعة محمد الخامس بالرباط منذ بداية السبعينيات. حصل على جائزة المغرب للكتاب مرتين، ثم على جائزة الإيسيسكو في الفكر الإسلامي والفلسفة عام ٢٠٠٦، وهو أستاذ زائر بعدة جامعات مغربية، ورئيس "منتدى الحكمة للباحثين والمفكرين" الذي تأسس في المغرب بتاريخ ٩ مارس ٢٠٠٢ .

وإذا انتقلنا إلي الحديث عن المشروع الفلسفي للدكتور طه عبد الرحمن فإنه يمكن القول بأن ينقسم، منطقيًا وليس مرحليًا، إلى

عناصر ثلاث. أولاً، فك الارتباط والتماهي بين الفلسفة عموماً، ومفهوم الحداثة خصوصاً، وبين الفكر الغربي. وبذلك يصبح ممكناً أن تقوم لكل ثقافة فلسفة خاصة، وفكر حدائتي خاص، مميز لها. ثانياً، إعادة الارتباط بين الأخلاق باعتبارها عمل وليس نظر وبين الفلسفة النظرية، عموماً، ومفهوم الحداثة خصوصاً. وبذلك يصبح الفكر النظري والعمل الأخلاقي وجهان لعملة واحدة. ثالثاً، تأسيس مفهوم العمل الأخلاقي على مبادئ وقيم الدين الإسلامي وعلى قراءة معاصرة للقرآن الكريم. وذلك باعتبار الدين الإسلامي رسالة إنسانية في المقام الأول، وهنا يقول يقول طه عبد



الرحمن: "إنّ الفلسفة الائتمانية تستمد عقلانية  
التأييد من النصوص المؤسّسة للتراث  
الإسلامي، متضمنة لفلسفات ثلاث، هي:  
فلسفة الشهادة، وفلسفة الأمانة، وفلسفة  
التزكية؛ لذلك، كانت جديرة بأن توصف بأنها  
فلسفة إسلامية حقيقية، أو حتى فلسفة  
إسلامية خالصة".

وتتأسّس (الفلسفة الائتمانية) -التي قدّم  
طه عبد الرحمن اجتهادات شتى في سبيل  
إقامتها تنظيرًا وتطبيقًا- على جملة عمد ناظمة  
تقيم بنيانها وتوصّل منظورها النظري والعملي،  
نورد من أهمها:

١ - أ. أساس النصّ المؤسّس؛ بحيث إنّ  
النصّ الشرعيّ المؤسّس - القرآن والسنة -، هو  
أصل الأصول لنظرية (الفلسفة الائتمانية)،  
فضلاً عن عموم اجتهادات طه عبد الرحمن  
التأسيسية اجتهاداً، التي تستلهمها استعمالاً  
ومفهوماً ودلالةً ومقصداً، ونحو ذلك من أضرب  
العلاقة بالنصّ الشرعيّ؛ لذلك اعتبر أن هذه  
النظرية هي (فلسفة إسلامية حقّة)، أو هي  
(فلسفة إسلامية خالصة)، باعتبار قيام بنيانها  
على النصّ الشرعيّ، إنّ بطريقٍ مباشرٍ أو غير  
مباشر.

٢- أساس العقل المؤيد الموسع أو الاتساعي  
أو المتقلب أو المتكوير؛ بحيث إن هذا الأساس  
الذي تقوم عليه نظرية (الفلسفة الائتمانية)  
محدد مركزي في مقابل عموم الفلسفات التي  
تتأسس على (العقل المستقل) أو (النظر  
المجرد)، أو قل: (المضيّق)، كـ(الفلسفة  
الدهرانية) ونحوها. بهذا كانت (نظرية الفلسفة  
الائتمانية) ليست من جنس ما يسمى في  
التراث الإسلامي العربي بـ(الفلسفة الإسلامية)،  
أو ما يسمى بـ(الفلسفة الغربية) حدائثة كانت  
أو غيرها، إذ كلتاهما قام بنيانه النظري تأسيساً  
على ناظم ما سماه طه عبد الرحمن بـ(العقل  
المجرد)؛ سواء تأثراً بـ(المنقول اليوناني) كشأن

الفلسفة الإسلامية، أو كشأن الفلسفة الغربية  
الحدائية في كثير من متجلياتها التي نشأت  
على ناظم (الفصل)، أمّا (الفلسفة الائتمانية)  
فقد تأسست على ناظم (العقل المؤيد)  
الموصول والممدود الصلة بالنصّ الشرعي  
الإسلامي.

٣- أساس خلق الائتمان؛ بحيث إنها سميت  
به جوهرًا وروحًا وفضاءً، وهو في هذا السياق  
التأسيسي عبارة عن فعل سلوكي روعي ينتظم  
في إضافة الشيء إلى مالكه الحقيقي  
استخلافًا؛ بحيث لا يضيف الشاهد المشهود أيًا  
كان إلى نفسه، ولا بالأولى أن يملكه، وإنما

يرعاه باعتباره وديعة أوّتمن عليها، يؤدي المتّصف به واجبات حفظه ورعايته، قبل استيفاء الحقوق التي خوّلها له مالكة الحقيقي سبحانه. فلا ائتمان إذا من المنظور الطهائي، إلا مع تقدم (الواجبات) على (الحقوق)، وهو بهذا الاعتبار على عكس (الاختيار). فيكون هذا الخلق قائماً بالتبع على وجوب تقديم اعتبار (الأمانة) على اعتبار (الملك)، أو قل: «أسبقية الواجب الائتماني على الحقّ الامتلاكي».

وعليه؛ فإن مبادئ نظرية (الفلسفة الائتمانية)، بقدر ما هي مفاهيم إسلامية

بمحمولات دلالية دينية أخلاقية روحية، فهي نواظم منهجية ومعرفية إصلاحية لعموم الأنظار الفلسفية دهرانية كانت أو غيرها؛ سواء في بُعد مسلك (الفصل)، أو في بُعد مهيع (التجريد).

ثم يطرح الدكتور طه عبد الرحمن مبدأ تعدد الحداثة، والتي تكمن في مجموعة القيم والمبادئ التي علينا أن نبحث عنها، دون أن نتوقف أمام واقعها الذي ينقله البعض نقلاً حرفياً، فهم تقليديون، وإن ادّعوا الحداثة، ولا أن نرفضها ونراها كفرة؛ فالحداثة أن يكون الإنسان حاضراً مبدعاً في عصره لا في زمان

غيره، فنستعيد من أسلافنا قدرتهم الإبداعية في  
الأخذ من اليونان واللاتين حتى نكون حديثين.  
وقد وضع الدكتور طه عبد الرحمن لروح  
الحدائثة في ثلاثة مبادئ، الأول: ألا تقبل  
بوصاية أحد على تفكيرك، وقد رأى هنا أنه  
ليس حديثاً فحسب؛ بل تراثياً، يتفق مع  
التصور التداولي الإسلامي "لا رشد مع تقليد"،  
أما المبدأ الثاني فهو: الفكر النقدي؛ أن تكون  
لك القدرة على الاعتراض على ذاتك وغيرك،  
وعلى الأشياء من حولك، فالاعتراض ليس  
محدوداً؛ بل هو شامل واسع. والمبدأ الثالث:  
الشمول؛ فالحدائثة تنتشر في المجتمعات

والمجالات كلها، ولا يمكن حصرها في مجتمع  
مخصوص، ولا مجال مخصوص، فلا قطيعة  
بين الحداثة والدين أو الأخلاق؛ فهي الروح  
التي ينبغي أن نأخذ بها اليوم، ونتوسّل بها في  
تحقيق نهضتنا، كغيرنا من الأمم.

وتأكيدا لهذا التعدد في فهم الحداثة، ينقد  
الدكتور طه الحضارة الغربية الحديثة، ويسمّيها  
حضارة القول على أساس لا أخلاقيتها كما  
يلي، وعلى الجملة، فإن ما أنتجته حضارة  
القول هو مزار ثلاث أصابت الإنسان في  
كيانه الخلقى: مضرّة التضييق التي جعلت  
الفعل الخلقى فعلا محدودا ومضرّة التجميد التي



جعلته فعلا مقطوعا ومضرة التنقيص التي جعلته فعلا منبوذا؛ وعلى هذا، يكون "الحد" و"القطع" و"النبد" هو نصيب الفعل الخلقى من حضارة القول، وفي هذا منتهى ظلم الإنسان متى عرفنا أن الحقيقة الإنسانية لا تتحدد إلا بالأخلاق؛ لذا يتعين العمل على دفع هذا الظلم عن الإنسان حتى تعود إليه هويته.

وثمة نقطة مهمة جدية بالإشارة وتقع ضمن مشروع طه عبد الرحمن وهي مشكلة العقلانية، حيث تركز محاولة الدكتور طه عبد الرحمن لتحقيق هذا المشروع الفلسفي على طرح تصور معين لمفهوم "العقل" و"العقلانية" يؤدي

بشكل تلقائي إلى إمكانية تحقيق المشروع.  
وبناء على هذا المفهوم المركزي يصبح ممكنا  
نقد الحداثة الغربية، ونقد الفكر الإسلامي  
القديم والحديث، ونقل (أي ترجمة) الفكر  
الغربي الحديث بصورة صحيحة، وقراءة (أي  
فهم) التراث الإسلامي قراءة صحيحة، وأخيرا  
تقديم التصور الأخلاقي الصحيح اللازم  
لمعالجة مشكلات الحداثة الغربية وتأسيس  
الحداثة الإسلامية البديلة.

ومفهوم العقلانية عند طه عبد الرحمن  
يعتمد أولا على رفض اعتبار العقل شيئا  
مستقلا، باعتبار ذلك مفهوما تجزيئيا للإنسان.

فالعقل هو فاعلية للإنسان ككل وليس كيانا مستقلا فاعلا. ثم يعتمد ثانيا على الربط بين الفاعلية النظرية المجردة (العقل النظري) وبين الشعور الذاتي الداخلي (القلب)، تطبيقا لعدم الفصل التام بين الذات والموضوع. وثالثا، على تقسيم الفاعلية العقلية إلى ثلاث مستويات أساسية، هي التجريد، والعمل، واليقين الصوفي، ويقابلها ثلاثة مفاهيم للعقل "العقل المجرد"، "العقل المسدد"، "العقل المؤيد".

وفي هذا الإطار يعارض طه عبد الرحمن النزعة التجزئية للعقل، بالمفهوم الغربي، ويقرر نظرية كورت جودل المشهورة في إثبات

وجود حدود للعقل في "قدرة الأنساق في السيطرة على الواقع"، ولذلك، وإذا صح أن الصياغة الصورية للنظريات (أو الصورنة) هي بالذات إضفاء الصيغة العقلانية عليها أو "عقلنتها"، صح معه أيضا أن حدود هذه الصياغة هي حدود العقلنة ذاتها، بمعنى أنه لا يمكن إخضاع الواقع لعقلنة كاملة، ما دام هناك من الحقائق ما لا يمكن تعقيله. ولما كان العقل المجرد هو عين هذا التعقيل، تبين بما لا يدع مجالا للشك قصوره عن درك حقائق علمية ثابتة.

والطريق لمعالجة مشكلة حدود العقل المجرد  
عند طه عبد الرحمن هو عملية إكمال لهذا  
العقل، وهذا يتم من خلال الربط بين النظر  
المجرد وبين العمل، والعمل هو على مقتضى  
الشرع الإلهي، السبيل هو بالذات الدخول في  
عملية "إكمال" أو تكميل "للعقل المجرد،... من  
خلال إقدار المتقرب على الفعل وإقامة نظره  
المجرد على العمل المشخص... ولا عمل أقرب  
إلى أن يسانده العقل والنقل من العمل على  
مقتضى الشرع الإلهي الأسمى. وعلى هذا،  
فالعامل الشرعي هو أنفع الأعمال في جلاء  
الحدود وأنجع الوسائل في رفع القيود.

ويصبح العقل المكمل بواسطة العمل هو  
"العقل المسدد"، ولما كان العقل المجرد بفضل  
تنزيله على العمل وتوجيهه على مقتضاه، يأخذ  
في ترك وصفه العقلاني الأصلي ليتجه إلى  
الاتصاف بوصف عقلاني أفضل وأعقل، ارتأينا  
أن نخص هذا العقل الذي يسدده العمل ويجدد  
لباسه باسم "العقل المسدد".

وتأسيسا على مذهبة الأخلاقي ينقد الدكتور  
ظه الحداثة الغربية وعقلانيتها العلمية -  
التقنية مطالبا بظهور مبدأ أخلاقي جديد  
يستبدل مفهوم السيادة على الطبيعة بمفهوم  
"المسودية لسيد الكون"، وهكذا، يتضح أن

الأخلاقيات التي تستحق أن تناظر النظام  
العلمي - التقني وتقدر على أن تمحو الآثار  
السيئة لتحويلات هذا النظام المتوالية  
والمتسارعة، ليست هي النظريات التي تعتمد  
التعقل والتنكر مثل نظرية المسؤولية ونظرية  
التواصل ونظرية الضعف - لخروجها جميعا  
عن شرط التناسب - وإنما هي نظرية تستبدل  
مكان صفة التعقل مبدأ "التخلق" الجالب  
للحكمة المؤيدة، وتستبدل مكان صفة التنكر  
مبدأ "التعرف" الجالب للبصيرة المسددة، وبما  
أن الحكمة المؤيدة لا تحصل إلا بترك العمل  
بمبدأ السيادة على الكون وبالإقرار بهذه  
السيادة لسيد الكون الحق، وأن البصيرة

المسددة لا تنال إلا بالخروج عن الشعور بحال  
السيادة والدخول في الشعور بحال المسودية  
لسيد الكون أو قل حال العبودية له، فقد جاز  
تسمية هذه النظرية المبنية على التخلق  
المفضي إلى الحكمة المؤيدة وعلى التعرف  
المؤدي إلى البصيرة المسددة باسم "نظرية  
التعبد"؛ فالتعبد إذن عبارة عن الجمع بين  
التخلق الحكيم والتعرف البصير.

تحية عطرة للدكتور طه عبد الرحمن الذي  
نجح في لحظة زمنية فارقة في الفكر العربي  
المعاصر أن يكشف لنا عن معالم الإبداع في  
الفكر والفلسفة واللغة والمنطق ، وذلك حين



دشن من خلالها أفقا فكريا واسعة وفريدة  
وتجلت مظاهر الفرادة الفكرية والعطاء العلمي  
حينما تعقب من خلال مشروعه القائم على  
فكرة التداولية والانتمائية من أن يغوص في  
تراقنا العربي ليتعقب من خلاله أحدث  
الأطروحات والدعاوي التي يكتمل بها معمار  
مشروعه الفكري، وذلك بما يسمح له الولوج  
وارتقاء طبقاته لكي يتعرف على أركانه  
ومقوماته ، والوقوف من ثم على نتائجه  
الكفريّة والمنهجية والمعرفية.

المراجع:

١- طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق - مساهمة

في النقد الأخلاقي للحدائثة الغربية، ٢٠٠٠.

٢-.....: حوارات من أجل المستقبل،

٢٠٠٠

٣-.....: روح الحدائثة - المدخل إلى

تأسيس الحدائثة الإسلامية، ٢٠٠٦ .

٤- عبد الباسط سلامة هيكل: إشكاليات

منهجية في قراءة طه عبد الرحمن للتراث،

حفريات، 05/09/2021

٥- غيضان السيد علي: مشروع طه عبد

الرحمن الفلسفي والحق في الإبداع الفكري

الإسلامي، مؤسسون بلا حدود للنشر والتوزيع،

٤ ديسمبر ٢٠٢١.

٦- محمد كنفودي: قراءة القرآن من منظور طه

عبد الرحمن ، مركز تفسير للدراسات القرآنية،

(١-٤) / مدخل تعريفي .

٧- يوسف المتوكل وآخرون : فلسفة الدين

عند طه عبد الرحمن ، الشعاب، عدد ٨ ذو

الحجة ١٤٣٨هـ/ سبتمبر ٢٠١٧.

د. محمود محمد علي

رئيس قسم الفلسفة وعضو مركز دراسات

المستقبل - جامعة أسيوط

